الأشكال والملامح الأولى لنقد القصة القصيرة في الجزائر

لكحل عبد القادر
جامعة محمد بوضياف - المسيلة

مقدمة :

اصطدمت القصة القصيرة الجزائرية عبر مراحل نموها بأشكال سردية، فرضتها عوامل تاريخية وفنية، أنتجت أجناسا سردية هجينة سماها النقاد بالمقال القصصي والصورة القصصية، ولدت من رحم المقامة والرواية والمقال الأدبي، وهي ألوان يحمل حضورها في النص القصصي القصير أبعادا ودوافع مختلفة، تنوعت بين الدفاع عن القديم وتطويع الحديث للسرد القصير.

وقد أدت كل هذه العوامل التاريخية والفنية إلى صناعة ثقافة نقدية، سنحاول أن نبرز أهم ملامحها وأشكالها الأولى في مختلف النصوص الأولى، وتبين مدى مساهمتها في تقويم القصة القصيرة الفنية وبعثها إلى الحياة، ومستوى إجراءاتها وتطبيقاتها قياسا على المناهج النقدية الحديثة، ومن ثم التعرف على أهم أعلم تلك المرحلة.

1. ظروف النشأة:

يتفق أغلب الدارسين للأدب الجزائري، على أن النقد في الجزائر قد ولد من رحم الحركة الإصلاحية، ولذلك بقي يسير وفق نهجها واهتماماتها، التي كان النقد خارجها، ولذلك نجد أبو القاسم سعد الله يوزعها على أعلام الحركة الإصلاحية وممن تخرج على أيديهم، على أربع مراحل لا تعدو أن تكون في مجملها، مجرد محاولات لوعي نقدي، شكل أولى ملامح نقد تعسر ميلاده في ذلك الوقت العصيب وهي:

المرحلة الأولى: ووصفها بأنها جاءت في شكل حملات؛ كان يقوم بها شيوخ الجزائر في بداية هذا القرن- من أبرزهم أبو القاسم الحفناوي، وعبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب ومحمد ابن أبي شنب، ومحمود كحول- تقوم على الصراع بين الجديد والقديم، وقد تمظهرت هذه المحاولات في شكل محاضرات وتوجيهات، وأراء كانوا يدلون بها عبر الصحف [1]

المرحلة الثانية: وقد اقتصرت على جهود عبد الحميد بن باديس، في توفيقه بين القديم والجديد[2]

المرحلة الثالثة: وقد مثلها البشير الإبراهيمي، الذي مارس النقد عبر جريدة البصائر، التي كانت تنشر له نماذج نقدية وإرشادات وتوجيهات، بعين نقدية للأدباء والكتاب، الذين كانوا يرغبون في المساهمة في التحرير.[3]

المرحلة الرابعة: ويمثلها الجيل الذي تخرج على يدي الشيخين الإبراهيمي وابن باديس، وتبدأ هذه المرحلة بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تميزت هذه المرحلة ببداية تحررها من القديم شكلا وموضوعا، وراحت تطبق بعض المناهج النقدية التي اكتسبتها من ثقافتها المعاصرة. وهي المرحلة التي شهدت بداية نقد القصة القصيرة وبداية كتابة القصة العربية.[4]

ولعل بداية نقد القصة القصيرة في هذه المرحلة، أتى بعد محاولات عديدة لكتابة القصة القصيرة، التي اصطنعت لنفسها عدة تسميات نتيجة تلونها وامتزاجها واغترابها، في أشكال سردية أخرى كانت منها على الخصوص المقامة والمقال. وقد "اهتدى ركيبي إلى مصطلحات نقدية تقارب هذا البزوغ القصصي الجديد في عصر النهضة مستفيداً من الموروث ومن الصحافة ومن التأثير الأجنبي، فصنف الكتابات القصصية إلى البدايات حيث النشأة والمؤثرات والمقال القصصي والصورة القصصية والقصة الفنية"[5] فكانت جهود ركيبي بحق اللبنة الأولى لما سيليها من الدراسات والبحوث في نقد القصة القصيرة، ومرجعا بحثيا لا غنى عنه لأي باحث في السرد القصير. ولذلك سنحاول أن نقرأ بعضا مما يأتي من هذا العمل مع ركيبي، ظروف نشأة الأشكال والملامح الأولى لنقد القصة القصيرة في الجزائر.

وقد" شهد الشهر السابع من سنة خمس وعشرين من هذا القرن ميلاد القصة الجزائرية، على يد محمد سعيد الزاهري الذي نشر في جريدة «الجزائر» محاولة قصصية عنوانها «فرانسوا والرشيد»" [6] حسب عبد الملك مرتاض في حين ترجعها عايدة بامية إلى قصة (السعادة البتراء) لمحمد بن عابد الجيلالي.

وقد جعل مرتاض لتطورها ثلاث مراحل: "أولى وتنتهي بظهور«غادة أم القرى» لحوحو وثانية وتنتهي بظهور «سعفة خضراء» لأبي القاسم سعد الله و«نماذج بشرية» لحوحو أيضا، وذلك سنة خمس وخمسين من هذا القرن، والمرحلة الثانية هي الخليقة بالاعتبار-فهذه مرحلة-"[7] أما المرحلة الثالثة فكانت بعد اندلاع الثورة وامتاز فيها الأدباء المهجريون، الذين ألفوا القصة القصيرة للتعريف بالثورة الجزائرية، ونذكر منهم عبد الحميد بن هدوقة وطاهر وطار وعبد الله خليفة ركيبي وعثمان سعدي ومرحلة رابعة بدأت بعد الاستقلال وفيها ظهرت القصة الفنية العالية التقنيات[8] ويعتبر مرتاض أن مسألة البحث في القصة بالعربية أو بالفرنسية، انتهت مع بداية الاستقلال بعودة الكتاب إلى الكتابة بلغتهم، على اعتبار أن من يكتبون بالعربية هم الأكثر، وهو حكم معياري موضوعي وعددي لا يتناسب مع طبيعة الكتابة المتحركة في الزمن كما ونوعا.

ومع ذلك فإن النقد ظل متخلفا، ومرد ذلك إلى كون "الأدب عندنا –كفن- ما يزال متخلفا من حيث الكم والموضوع والأسلوب. فليس هناك –بالعربية – قصة توفرت لها شروط الإجادة في التقنية والعلاج"[9] وهو ما أدركه أبو القاسم سعد الله، في تقديمه لقصته سعفة خضراء الصادرة سنة 1954 " يكاد الأدب الجزائري يكون خاليا من عنصر القصة التي أصبحت مادة أولى لمفاهيم الآداب العالمية الحديثة ..."[10] في حين خيم الشك والتوجس منها في أدبنا العربي، وهي ذهنية لازالت إلى اليوم ترفض غمار التجربة وتصدها بأسلحة القديم.

أما عن العوامل غير المباشرة التي عسرت من ميلاد النقد، خلال النصف الأول من هذا القرن فتعود إلى جملة من العوامل، يأتي في طليعتها القمع الاستعماري الثقافي، الذي تجسد في محاربة اللغة العربية ومن قبله التواجد العثماني، وهو ما أدى إلى انشغال المثقفين بالسياسة عن النقد الأدبي، واتخاذ المعربين منهم موقفا من لغة المستعمر حرمهم من الإطلاع عن الحركة النقدية الأوربية والترجمة، ولا

نكاد نرى جهودا نقدية إلا من خلال مجموعة من النقاد الإصلاحيين، الذين ركزوا جهودهم على المقال الأدبي ذي الطابع السياسي الإصلاحي الذي شغل الصحافة [11]

2. الميلاد العسير لنقد القصة القصيرة:

ما سبق ذكره آنفا من ظروف نشأة القصة القصيرة ونقدها، أفرز فنيا موقفا أدبيا حاد، تخوف من الجديد ودعا إلى التمسك بالقديم، فشملت هذه النظرة القصة القصيرة على اعتبار أنها فن جديد، وجد أمامه أحكاما نقدية جاهزة فرضتها على أدباء المرحلة فكرة التصدي الثقافي للمستعمر والخوف على التراث معا.

وعلى الرغم من وقوع حوار حول القصة، وتعبير الكتاب عن الحاجة إلى الدعوة للقصة القصيرة، فإنهم لم يتعرضوا إلى نقد نموذج واحد منها إنما كانوا يكتفون بهذه الدعوة وحدها[12] التي لم تلق استجابة كبيرة، وبقيت القصة تراوح مكان المقال القصصي والصورة القصصية، من دون أن تفرز هذه الدعوة إنتاجا ملائما لخلق حركة نقدية، منفتحة على المناهج النقدية الأوروبية،"فالعلاقة بين الأدب ونقده علاقة طردية، فإفلاس المنتوج الثقافي في ذلك الزمن الصعب والمنتوج القصصي تحديدا هو إفلاس الإنتاج النقدي بالضرورة"[13] وهو ما افتقدته الذائقة الأدبية لعقود طويلة.

كل هذه العوامل والظروف التي نشأ فيها النقد جعلته ينحصر في نقود انطباعية تمظهرت في شكل آراء؛ مثل رأي عبد الحميد ابن باديس في موضوع قصة محمد بن عابد الجيلالي (السعادة البتراء) حول طريقة الزواج التي جاءت في القصة "الزواج في الإسلام مبني على المعرفة والرضا ولعلنا نكتب في الجزء الآتي إن شاء الله-رجحانه على الزواج المبني على الحب والتعارف"[14] وهو رأي فتح للشيخ باب الممارسة النقدية، التي بدأنا بعد ذلك نلاحظ تطورها في آرائه المبثوثة هنا وهناك.

ومنها ما جاء في كتاب " الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير " حين قال "وساق ذلك كله في أسلوب من البلاغة الشبيه بالروائي سهل جذاب لا تستطيع إذا تناولت أوله أن تتركه قبل أن تأتي على آخره "[15] وهي إشارة نقدية صريحة تدعو للاهتمام بعنصر القص، والإشارة إليه وإلى أهميته ولو أنه جاء في شكل رأي عام خال من التفصيل و التبيين، فقول عبد الحميد ابن باديس يدل على دراية تامة بالفنون السردية الحديثة وأهمها الرواية، كما تعد مقولة عبد الحميد ابن باديس "أول إشارة من نوعها إلى الأسلوب القصصي "[16]، ولكن هل يمكن اعتبار مقولة عبد الحميد ابن باديس حكما نقديا أو ممارسة نقدية يمكن الاعتماد عليها في التأسيس لنقد القصة القصيرة أو السرد عموما في الجزائر؟

ولأن النقد لاحق للعمل الأدبي تنظيرا وتطبيقا، فإن المرحلة الرابعة من عمر القصة القصيرة قبل الاستقلال، قد شهدت أحداثا تاريخية فاعلة، ساهمت في التطور الفني للقصة القصيرة "ولعل أهم حدث أدبي في هذه الفترة هو ظهور كتاب «مع حمار الحكيم» لأحمد رضا حوحو، وهي سلسلة من مقالات قصصية نشرها في جريدة البصائر ثم جمعها في كتاب، أثار زوبعة من النقاشات لجدية المواضيع المطروقة بأسلوب الحوار الساخر، ونهض أدباء آخرون من أمثال الحفناوي هالي و«الهاشمي تيجاني» اللذين ثبت لكليهما باب في الجريدة المذكورة آنفا"[17] وبدأ النقاش الأدبي يأخذ طريقا نقديا متخصصا، موضوعه الاهتمام بالجنس الأدبي ونقده ففي" سنة 1947 كتب «حوحو» مقالا عنونه «استنطاق الشخصيات في الأدب القصصي» يحث فيها الأدباء على كتابة القصة من أجل التنوير الاجتماعي وبعث هذا الفن"[18] في الساحة الأدبية وفي نفوس القراء الذين يشكلون مادته هم في حد ذاتهم.

وهو ما أكد عليه في "مقدمته (سنة 1954) لمجموعة (صاحبة الوحي) حين قال إنه لم يلجأ إلى الخيال، بل انتزع شخصياته المعروفة من واقع معلوم"[19] ولكن حسب رأينا المتواضع أن حوحو لم يقصد استبعاد الخيال الفني حسب عمر بن قينة[20] بل قصد إبراز تأثره بالمذهب الواقعي النقدي وهذا ما يدل عليه تنظيره" لملامح الحدث القصصي، والبطولة في القصة أو مستوى الشخصيات.."[21] التي دعا كتاب القصة القصيرة إلى الالتزام بها في كتاباتهم.

ومن الكتاب القلائل الذين خاضوا في القصة القصيرة كتابة ونقدا، انطلاقا من إدراكه لقيمة السرد القصير والطويل في ذلك الوقت، نعثر على محمد بن عابد الجيلالي "ومن ذا الذي ينكر عن الرواية والقصة فضلهما في تأصيل اللغة وتنمية روحها وحسن أثرهما في الثقافة"[22] وهي دعوة هامة من لدن شخصية أدبية مقروءة، ساهمت في صعود هذين اللونين إلى الواجهة الأدبية في تلك الفترة حتى وإن كان من باب وظيفة خدمة اللغة العربية.

وعلى الرغم من بقاء تصور الأدب القديم المهتم باللغة، من دون تنويع قوالب فنية جديدة له وهو ما سبقنا العرب إليه، إلا أن حكم محمد بن عابد الجيلالي يدل على وعي نقدي أدبي كبير بالألوان الأدبية الحديثة، يظهر ذلك من خلال تفريقه بين القصة القصيرة والرواية، وهو ما يدل عليه إطلاعه على الأسس الفنية لكليهما، النابع من كونه قاصا بالدرجة الأولى "بل إن أحمد بن ذياب (حسب ما نقله شريبط، ص63 يعتقد أن أعمال الجيلالي نموذج متكامل للقصة من حيث الأسلوب، ومن حيث الروعة في العرض، ومن حيث الاتصال، ومعالجة المشاكل معالجة حكيمة بثقة تستهوي القارئ وتمتلك عليه لبه فيظل مشدودا بسياقها يتابعه، وتشتد الحبكة أو يتفاقم المشكل، فيأخذ ينتظر المصير متسائلا عن أي المفاجآت يتجلى الموقف وبذلك تكون أعمال الجيلالي قد ارتقت فنيا بفضل وعيه النقدي وفهمه الصحيح للأدب" فهو أقرب إلى الكاتب المتخصص والأديب الذي يفهم الأدب على أنه مختلف عن الوعظ والإرشاد ، "[23] ولكن على الرغم من طرقه لأركان القصة وأساليبها، إلا أنه يبقى طرقا سطحيا يفتقر إلى الدرس والتحليل ولو لقصة واحدة، ويعود ذلك في غالب الظن إلى عدم إطلاع الكاتب على مناهج النقد المعاصر.

ويمكن القول على الرغم من محاولت وجهود حوحو والجيلالي، فإنه"لم يوجد ناقد دراس ليوجه القصة شكلا ومضمونا لتصبح فنا له تأثيره وله قيمته في مجال الأدب والحياة عامة"[24] وما وجد من نقاشات كان يدور حول الموضوع لا في صلبه مثل، "الحديث حول الأسباب التي أخرت الأدب الجزائري دون أن تتعرض إلى الإنتاج –شعرا وقصة-بالدراسة والتحليل والنقد والتوجيه"[25] وهو ما يجعلها"مجرد محاولات تتلاءم مع المستوى الفني لإنتاجها الأدبي"[26] الضئيل غير الناضج فنيا.

واستمر الوضع النقدي على ما هو عليه تتجاذبه محاولات سطحية، من دون أن يجد لنفسه حاضنة فكرية تؤسس لكتابة نقدية حقيقية" وحتى بعد قيام الثورة ظل نقد القصة سلاحا إلى حد ما، وما وجد منه لم يزد على إشارات وحديث عن الأسلوب القصصي ولكن دون تعرض إلى الشكل والمضمون بالنسبة إلى القصة"[27] ولعل السبب في هذا يعود إلى انبهار العالم في ذلك الوقت بجنس الرواية.

حيث تم توجيه النقد "إلى الروايات لا إلى القصة القصيرة فإنتاجها كان قليلا وتطورها جاء متّأخرا"[28] فتوجهت الأقلام في تلك الفترة إلى كتابة الرواية ونقدها، وتم إنتاج عدد معتبر من الروايات الشهيرة المكتوبة بالفرنسية، كثلاثية محمد ديب، ونجمة لكاتب ياسين وغيرها من الأعمال الروائية، وهو ما تسبب في ضعف نقد القصة القصيرة وإنتاجها"على أن ضعف النقد صاحبه ضعف آخر في الترجمة بل ندرة كاملة لترجمة النماذج القصصية والدراسات النقدية وما ترجم لا يتجاوز بضعة قصص لم يكن لها تأثير في الإنتاج القصصي بالرغم من أن الدعوة إلى الترجمة كانت دعوة مبكرة نسبيا"[29] ومع كل هذا فإنه لا

يمكن إعداد ضعف النقد عاملا مباشرا في عدم تطور الكتابة القصصية القصيرة بل قلة موضوع النقد- وهو القصة القصيرة – قليل وغير كاف لخلق مناخ يعمل فيه الكتاب على استنبات حركة نقدية تحتفي بالإنتاج القصصي.

خاتمة:

ولد نقد القصة القصيرة في الجزائر في النصف الأول من القرن العشرين، من رحم الحركة الإصلاحية التي لم يكن من أولى ترتيباتها الفكرية والإصلاحية، ولذلك ظهر في بادئ الأمر في شكل آراء وأقوال مجتزئة من الخزانة النقدية العربية القديمة، التي لا تنفك تخرج عن وصف اللغة والأسلوب، رغم دراياتها بالفنون النثرية الحديثة كالرواية والقصة والمسرح.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية إلى غاية اندلاع الثورة وأثناءها، ساهم الوعي التحرري في الحث على إنتاج القصة القصيرة، كسلاح ثقافي يدعم الثورة ويقويها، فسجلت الساحة انتعاشة أدبية فنية أسفرت عن ميلاد القصة القصيرة الفنية، وهو ما سمح بظهور أشكال نقدية تراوحت بين الرأي السطحي والتنظير النقدي.

بعد الاستقلال وإلى غاية اليوم لا يزال نقد القصة القصيرة حقلا خصبا، يفتقد للاهتمام والجهد المطلوبين، وهو واقع تعكسه حالة التيبس أمام الدراسات السابقة للركيبي وعايدة بامية وغيرهما وهو قليل "إذ إن جل الدراسات التي تناولتها توقفت عند السنوات الأولى للاستقلال رغم أن مجموعات قصصية كثيرة ظهرت بعد ذلك، خصوصا منذ عام 1972م" [30]، الأمر الذي يدعو إلى إعادة قراءة ثانية للموروث القصصي والنقدي الأول ، للخروج من استنساخ أفكار الدراسات الأولى من جهة، والاهتمام بما يقدمه الكتاب اليوم ومرافقته من جهة أخرى، إثراء لمكتبة نقد القصة القصيرة في الجزائر.

الهوامش والإ□الات:

[1] أبو القاسم سعد الله (2007)، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، (ط.5)، الجزائر، دار الرائد للكتاب (ط5)، ص80.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه ، ص80

[3] أبو القاسم سعد الله، ، المرجع نفسه ، ص80

[4] أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه ، ص80

[5] عبد الله أبوهيف (2000)، النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، سوريا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص 31.

[6] عبد الملك مرتاض (1990)، القصة الجزائرية المعاصرة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص7.

[7] عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص7

[8] أنظر عبد الملك مرتاض، المرجع نفسه، ص7 و8 .

[9] أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق ، ص79 و 80.

[10] عمر بن قينة (2017)، في الأدب الجزائري الحديث(ط.3)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية (ط3)، ص 179.

[11] مخلوف عامر (2008)، مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر، تيزي وزو الجزائر، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع (ط2)، ص32 و33.

[12] عبد الله ركيبي (2009)، تطور النثر الجزائري الحديث، الجزائر، دار الكتاب العربي، (ط.2)، ص 300.

[13] بوضروة زهرة (2007)، القصة الجزائرية بين الإتباع والإبداع، رسالة ماجستير، الشلف، الجزائر، كلية الآداب واللغات، جامعة حسيبة بن بوعلي،ص66.

[14] عمر بن قينة، مرجع سابق ص 167

[15] عبد الله ركيبي (2009)، القصة الجزائرية القصيرة، الجزائر، دار الكتاب العربي، ص 25.

[16] المرجع نفسه، ص 25

[17] بوضروة زهرة، القصة الجزائرية بين الاتباع والإبداع ، مرجع سابق: ص89

ص59و60 المرجع السابق، [18]

[19] عمر بن قينة، مرجع سابق، ص 178

[2020] المرجع نفسه، ص 178

[21] ينظر المرجع نفسه ، ص 178

[22] عبد الله ركيبي ، القصة الجزائرية القصيرة، مرجع سابق ص، 26

[23] عباس بن يحي (2018)، محاضرات القصة الجزائرية القصيرة، كلية الآداب واللغات جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، الجزائر، ص09.

[24] عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة مرجع سابق،ص 26.

[25] المرجع نفسه ،ص 42

[26] المرجع نفسه ،ص 42

[27] المرجع نفسه ،ص 44

[28] المرجع نفسه ،ص44

[29] المرجع نفسه ، ،ص 44

[30] شريبط أ□مد شريبط (1998)، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعا □رة 1948-1985، سوريا، منشورات إتحاد كتاب العرب، ص5.

قائمة المصادروالمراجع:

1. أبو القاسم سعد الله (2007)، ***دراسات في الأدب الجزائري الحديث***، الجزائر، دار الرائد للكتاب (ط5).
2. عبد الله أبوهيف (2000)، ***النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد***، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.ط).
3. عبد الملك مرتاض (1990)، ***القصة الجزائرية المعاصرة***. الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب .
4. بوضروة زهرة (2007)، ***القصة الجزائرية بين الإتباع والإبداع*** ، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة □سيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر.
5. عباس بن يحي (2018)، ***محاضرات القصة الجزائرية القصيرة***، الجزائر، كلية الآداب واللغات جامعة محمد بوضياف بالمسيلة.
6. عبد الله ركيبي (2009)، ***تطور النثر الجزائري الحديث***، الجزائر، دار الكتاب العربي، (ط2).
7. عبد الله ركيبي (2009) ، ***القصة الجزائرية القصيرة***، الجزائر، دار الكتاب العربي.
8. عمر بن قينة (2017)، ***في الأدب الجزائري الحديث***، الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية (ط.3).
9- شريبط أ□مد شريبط (1998)، ***تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة 1948-1985*** ، سوريا، منشورات اتحاد كتاب العرب.
10. مخلوف عامر (2008)، ***مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر***، تيزي وزو، الجزائر، دار الامل للطباعة والنشر والتوزيع.